الطير والتطير في شعر عصر صدر الإسلام

د.عبدالله فتحي الظاهر(*)

عني العرب بالطير منذ عصر ما قبل الإسلام عناية كبيرة، فتتبعوا حركاته، ودققوا النظر في صفاته، واكثروا من وصفه، فأجادوا وصف حركاته وعاداته وأصواته ومواطنه، وكان للطير في حياتهم اثر واضح سلبا وإيجابا، فمنه ما يذكرهم بالأحبة فيتفاءلون حين سماع صوته ويستبشرون به خيرا، فتنشرح بغنائه نفوسهم، ويذكرهم بالأحبة الراحلين فيبكون لبكائه كالحمام والقطا.

ومن الطير ما يثير في نفوسهم التشاؤم فيتطيرون عند سماع صوته او نعيبه، فيلغى كل ذي قصد قصده ويعود أدارجه، خوفاً من اثر الشؤم الذي يتوقعه جراء سماع نعيبه أو نعيقه، أو رويته كالبوم والغراب، ومنهم من كان يتشاءم من الطير التي تمر منهم شمالا وهي الطير البوارح ويتفاءل من المتيامنة.

ومن الطير ما يضرب به المثل قوة وخفة ونشاطا، لذلك فهم يشبهون بالضواري منه أبطالهم بجامع الشجاعة والجرأة وحدة النظر وسرعة الانقضاض والفرس كالصقر مثلا.

ومن الطير ما كان مضرب المثل في امتداد العمر كالنسر، وللشاعر لبيد بن ربيعة مع النسر مواقف و أشعار.

اما الشعر في عصر صدر الإسلام فله موقفه من الطير والتطير، فلا طيرة في الإسلام ولا تشاؤم. وقد أكد القرآن الكريم والسنة والمطهرة ذلك.

(*) قسم اللغة العربية – كلية الآداب / جامعة الموصل.

الطير والتطير

الطير

الطير لفظ يدل على الجمع، مفرده طائر، قال تعالى: (ألم ترَ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لهُ من في السَّمَاواتِ والأرض والطَّيْرُ صافَّاتٍ كلٌّ قد عَلِمَ صَلاتَهُ وتسبيحَهُ واللهُ عليمٌ بِمِا يَفْعَلونَ)[١]، وفي الطير كما في سائر الحيوان، مفترس وغير مفترس، أهلي اليف، اطلق عليه وصف (الداجن) كالدجاج، ووحشي ضار وصف بالجارح، وهو الصائد من الطير كالعقاب والبازي والصقر، قال تعالى: (يسألونك ماذا أحِلَّ لهُمْ قلْ أُحِلَّ لكمُ الطَّيِّباتُ وَمَا عَلَّمْتمُ مِّن الجَوَارِحِ مُكلِّبينَ تعَلِّمُونهُنَّ ممَّا عَلَّمَكمُ اللهُ فكلوا ممَّا اَمْسَكنَ عَلَيْكمْ وَاذْكرُواْ اسْمَ الله عَليْه)[٢]، ووحشي غير ضار كالغراب والبوم والقطا والنعام، وللطير في شعر العرب قبل الإسلام ذكر وافر، ولعل أوسع الطير ذكرا: الحمام مقترنا بحديث التذكر والحنين والبكاء[٣]، والقطا في معرض التشبيه وحديث المعاناة من العطش[٤]، والغراب عند التشاؤم[٥].

وكان للطير الضاري ذكر كثير؛ لاهتمام العرب بالصيد؛ ولاحترامهم صفة القوة التي يتمتع بها الطير الجارح، حتى شبهوا أبطالهم بالصقور، يقول المنخل اليشكري[٦]:

وعلى الجياد المُضمرا ت فوارسٌ مثل الصقور

(١) النور: ٤١، وتنظر: الملك: ١٩.

(٢) المائدة.

(٣) ينظر: ديوان عشرة: ٢٨٧.

(٤) ينظر: ديوان امرئ القيس: ١٢١، والاصمعيات: ٦٠.

(٥) لا لحيوان: ٣١٦/٢، وديوان عنترة: ١٢٧.

(الاصمعيات: ٥٩.[٦])

وشبهوا خيلهم وايلهم كذلك بالجوارح بجامع القوة والنشاط والسرعة، وضربوا بالنسر المثل بطول العمر، واقتران ذكره بذكر معاركهم وتمدحهم ببطولاتهم؛ لأن النسر غالباً ما يعتمد على الجيف ولا يصيد إلا نادرا، فهو من سباع الطير لا من جوارحها.

اما في شعر صدر الإسلام فلم يكن ذكر الطير كما كان عليه من قبل، خلا ذكرها الحمام والقطا في حديث الحنين والتشبيه، والغراب في حديث البؤس والفاقة، وفي معرض رفض التطير والتشاؤم الذي حذر منه الإسلام، اما الجوارح فغالبا ما كان ذكرها في أحاديث التشبيه ولقد جرى تقسيم اسم الطير إلى قسمين رئيسين: الجارح وغير الجارح، وعلى هذا جريت في هذا المبحث:

الطير غير الجارح

كان البدء بغير الجارح؛ لأهمية وكثرة نصوصه بالقياس إلى الجوارح، ويأتي في مقدمة الطيور غير الجارحة، الحمام والقطا والنعام.

الحمام

هو اكثر الطير غير الجارح ذكرا في أشعار صدر الإسلام، فقد أجادوا وصفه وتصويرا ما يصدره من حركات وأصوات، فقد عد الحزين صوته بكاء، والمسرور عدة عناءً، فالعربي الذي قدر له ان يكون كثير الترحل، وجد في الحمام شبيهاً له في حله وترحاله، وعد صوته بكاء لما كان يعانيه من مشاق وألم البعد ولوعه الفراق وشدة الأيام، فكان الحمام النائح هذا يفصح ببكائه عن حالة تلك، فان أحس الغربة وسمع نوح حمامة، تمثل له الفه وطفق يربط بين ما يعاني منه وما يتخيله من فقد او مصيبة نابت الحمامة، مرتبطاً معها بمشاعر اللوعة والحنين، ولعل الفقد كان اكثر ما يعانيه المرء وما زال، لذلك كان الراثون اكثر الناس ذكراً للحمام النائح، ولعل خير من مثل هذا الجانب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام واحسن الربط بين

مشاعر الفقد ونوح الحمام، الخنساء الشاعرة التي بكت أخويها وظلت تبكهما حتى وعظها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واعلمها ان الخلد لله وحده، وان أخويها ماتا في الجاهلية وكان ذلك – حسب جوابه – اطول بعويلها؛ لأنهما لم يدركا النور: لذلك فهي حين فقدت أولادها المجاهدين، حمدت الله تعالى الذي شرفها باستشهادهم، ومن شعرها في اخويها مما قالته متذكرة وما أنشدته في صدر الإسلام فيهما قولها:

إنـــي تـــذكرني صـــخرا إذا ســـجعتُ علـى الغصـونِ هتـوفٌ ذات اطـواقِ

وقولها:

تـــذكرتُ صـــخراً إذ تغنـــت حمامـــةٌ هتوفٌ على غصن من الايك تسجعُ

وكان عمر رضي الله عنه قد استنشدها ذات مرة، فقالت أما اني لا أنشدك مما قلت اليوم ولكن أنشدك مما قلت الساعة.

أما متمم بن نويرة فلم تكن عينه تكف عن السكب حتى تستعيد الدمع مناجاة حمامة الفها، فتجري مدامعه ويدب على لسانه شعر حزين دامع منه قوله:

اذا رقـــات عينـــاي ذكرنـــي بـــه حمـــامٌ تنـــادى فـــي الغصـــون وقـــوعُ

دعـــونَ هـــديلَ فاحتزنـــتُ لمالـــكٍ وفـي الصـدرِ مـن وجـدٍ عليـه صـدوعُ

أما إذا طال البعد، فان صوت الحمام كان يثير أنات الحزن والحنين، فقد وردت نصوص كثيرة كان نوح الحمام الباعث الأول على إنشادها، فهذا أبو اسود الدؤلي تهيجه سجعات حمامة على ايكة قريبة منه، فتثير قريحته شعراً ليقول:

واسجعٍ في فروع الايك هيجني   لم ادرِ لِما ناح مما بي ولم سجعا

اباكيا الفه من بعد فرقته   أم جازعا للنوى من قبل ان يقعا

يدعو حمامته والطيرُ هاجعة   مما هجعت له ليلا وما هجعا

شكا النوى فبكى خوف الأسى فرمى   بين الجوانح من اوجاعه وجعا

فهو يرى في سجعات الحمامة انيناً سبب له بكاء بعد تساؤل، أهو مثله مفارق يبكي الفه؟ أم يحس بأن فراقاً سيحل بينهما، فبكى يدعو حمامته وقد اوت الطير إلى اوكارها، ولم يشاركه معاناته إلا مسهد آخر زاد بكاه الما وحسرة، وتلك هي المشاركة الوجدانية التي تبدو في ما بثه الشاعر من مشاعر إنسانية إزاء طير نائح على ايكة، حتى رأى فيه نفسه حين فقه شكواه وأحس أوجاعه.

ولقد عد صوت الحمامة في بعض النصوص نداءً فصيحاً، بل هو منطق عجب، ذلك ان الشاعر يفهم منه قصدها وكأنها بمنطقها تترجم معاناته، حتى صورها بصورة نواحة تبكي فقيداً لها وذلك ما نقرؤه في شعر لصخر الغي يبكي تليدا ابنه:

وذكرني بكاي على تليد   حمامة مر جاوبت الحماما

ترجع منطقا عجبا واوفت   كنائحة اتت نوحا قياما

تنادي ساق حر وظلت ادعو   تليدا لا تبين به الكلاما

ولقد التقاها غير مرة، فبكيا مصيري صغيريهما حتى اليأس ثم الإقرار بما قدر الله.

انه حينما وصف الحمامة بالفصاحة وبفهمه لغتها، دعاه ذلك إلى التيقن بأنهما مشتركان بالمعاناة، وهذا ما قرأنا أمثاله في شعر لحميد بن ثور حين سمع حماماً يهتف على غصن، ففهم انه يريد الفه ويرجع بسجعاته يدعوها اليه، حتى عاد الشاعر بالتذكر إلى أحبابه فقال:

إذا نادى قرينته حمام جرى لصبابتي دمع سفوح

يرجع بالدعاء على غصون هتوف بالضحى غرت فصيح

هفا لهديله مني إذا ما تغرد سجعا قلب قريح

فقلت: حمامة تدعو حماماً وكل الحب نزاع طموح

فهو يرى المحبين سيان، فكل الف ميال إلى الفه حتى في الحمائم، ويصف حميد في نص آخر حمامة على نخلة هاجت أشواقه وهي تدعو الفها وتروح وتغدو تراعي فرخا لها صغيراً.. حتى إذا اشتدت الريح ولم يكن عشها على الغصن مكينا، راحت تحوطه، فنما زغبه واكتسى جسمه ولكن دون الطيران.. عندها لم يعد العش يحويهما، لينقض عليهما صقر فيصيب منه ثكلا.. وراحت تبكيه بحرارة وجد وعولة فقد، ولنقرأ ما رسمه في لوحة جملية مميزة:

من الورق حماء العلاطين باكرت عسيب اشاء مطلع الشمس اسحما

اذا هزهزتـــه الـــريح أو لعبـــت بـــه ارنـــت عليـــه مـــاثلا ومقومـــا

تبـــاري حمـــام الجلهتـــين وترعـــوي إلى ابن ثلاث بين عودين اعجما

بنـــت بيتـــه الخرقـــاء وهـــي رفيقـــة بـــه بـــين أعـــواد بعليـــاء معلمـــا

فلمـا اكتسـى ريشـا سـخاما ولـم يجـد لـه معهـا فـي باحـة العـش مجثمـا

اتـــيح لـــه صـــقر مســـف فلـــم يـــد لهـــا ولـــدا إلا رميمـــا واعظمـــا

فطفقت – وقد ثكلت – تنوح بمنطق فصيح، اعجب الشاعر وهي العجماء، غير ان لغة الحزن ذات وقع قاس على الأذان:

عجبـــت لهـــا يكـــون غناؤهـــا فصـيحا ولـم تفغـر بمنطقهـا فمـا

فلـم ار محزونـا لـه مثـل صـوتها ولا عربيـا شـاقه صـوت اعجمـا

كمثلـــي إذا غنـــت ولكـــن صـــوتها لـه عولـة لـو يفهـم العـود ارزمـا

وواضح ان الشاعر يرمز بالحمامة إلى حالة يعيشها من فقد وحنين ليبث به ذات نفسه ويكشف عن معاناته فيمزج مشاعره بمشاعرها، وانه أراد بها امرأة وكنى بها عنها، ولعل هذا مما أحدثه توجيه الخليفة عمر رضي الله عنه في تطور أسلوب الوصف المباشر – عند حميد خاصة – واتجاهه إلى الرمز وما أحدثه من استبطان كثير من الشعراء أنفسهم ليعبروا عن كوامنها باشراك مظاهر الطبيعة من حولهم ما يعانون.

ولم تقتصر علاقة الشاعر بالحمامة على فهم منطقها واشراكها الأمة وحسب، بل راح يلتقيها فتبثه آلامها وأحزانها ويبثها، فتسأله ويسألها، وكان من ذلك هذا اللقاء:

ومـــا ان صـــوت نائحـــة بليـــل بســـبلل لا تنـــام مـــع الهجـــود

تجهنـــــا غـــــاديين فســـــاءلتني بواحـــدها واســـأل عـــن تليـــد

فقلـــت لهـــا: فامـــا ســـاق حـــز فبـــان مـــع الأوائـــل مـــن ثمـــود

وقالـــت: لـــن تـــرى ابـــدا تليـــدا بعينـــك آخـــر العمـــر الجديـــد

كلانـــــا رد صـــــاحبه بيـــــأس وتانيـــــب ووجـــــدان بعيـــــد

لقد عانى صخر الغي من أحزان الفقد حتى اصطرعت في داخله مشاعر القلق، فهو يعلم ان عود تليد أمر محال، ولكنه طفق يسأل الحمامة النائحة التي يرى انها تبكي فرخها (ساق حر) فسألته عن فرخها وسألها عن ابنه ثم أجاب ان وجدان ابنها مستحيل في هذه الدنيا، وذلك هو مصير ابنه الذي أعاد ذكره على لسان الحمامة.. وهكذا عبر الشاعر عن اليأس الكامن في داخله عن طريق الإفصاح بهذه الصورة والإقرار بالمصيبة واللوم على الإصرار في البحث غير ذي الجدوى.. ولم يكن الشاعر وحده المستجيب لبكاء الحمام، فلم تقتصر المشاركة الوجدانية بينهما وحسب، ذلك ان الإبل كثيرا ما تشارك الحمام مشاعرها وتنسجم ان هي خبت وحنت، لتجاوبها حمامة، فتستجيب لها، وفي قصة ناقة الشماخ خير مثال على هذا، فحين

سار عليها إلى عرابة الاوسي وكان قد عدها ملاذه، ليسري ما أظله من هم بالسفر عليها، فيقول:

حنـت علـى سـكة السـاري فجاوبهـا حمامـة مـن حمـام ذات اطـواق

كـادت تسـاقطني والرحـل ان نطقـت حمامـة فـدعت سـاقا علـى سـاق

فناقة الشماخ نشيطة، لا تكاد تستقر وهي تحمله مسرعة، حتى إذا سمعت حمامة تدعو اليفها على غصن بقربها، شاقها صوتها فأطربها، حتى أخذتها هزة كادت ان تسقط الرحل والمترحل.

لقد استطاع الشاعر ان يصوغ المشاركة الشعورية متاثرا بما يعانيه من مشاعر الغربة وانات الحنين المستديمة التي أحدثتها تجاربه المخففة – في حياته الزوجية خاصة – ذلك انها لم تعرف وئاما ولا حبا ربط عراها، وهو الرجل الذي كمن بين جوانحه قلب شاعر ونفس حساسة. ومن خلال النصوص التي استعرضناها، وغيرها نجد ان للحمام دوراً مهما في إثارة أحزان الشعراء وقرائحهم، لينتجوا شعرا صادقا معبرا عن مشاعرهم، وقد سلكوا في صوغهم ذلك الشعر السبيل القديم إلا من مصطلحات ومعاني إسلامية تظهر اثر الإسلام في بعض تلك الأشعار.

القطا

اقترن ذكر القطا في شعر ما قبل الإسلام بأحاديث الظمأ والرحلة، ووصفت القطاة بسرعة الطيران إلى الماء، وضرب بها المثل في أمور عديدة منها قولهم: (أهدى من قطاة)؛ لأنها تهتدي في مجاهل الصحراء إلى هدفها في الوقت الذي يضل فيه سائر الحيوان، ومنها قولهم: (اصدق من قطاة)؛ لأنها تعرف إذا صاتت، وليس مثلها سائر الطير، وفي ذلك قالوا شعراً كثيراً.

اما شعراء صدر الإسلام فقد وصفوا القطا كذلك وأجادوا، وخاصة من اعتاد منهم حياة البدو، فالعربي يسعى إلى الماء ليورد ابله ايامالصيف الحارة يروح ويغدو في مجاهل الصحراء وراء غياته المعروفة فيرى القطاة تطير مرتفعة أو مسفة تسعى هي الأخرى إلى الماء ودونهما بعد سحيق، فقد جفت الغدر، وفقس بيضها عن فراخ ذوات حواصل حمر وزغب، تطير ثم تهبط ترعى نبات الصحراء ثم تواصل الطيران في رحلة الماء التي تزيد حرارة الجو وظمأ الباحثة عن الماء لصغارها، وذلك ادعى لسرعتها، يقول عمرو بن احمر:

ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة صحيح السرى والعيس تجري غروضها

بتيماء قفر والمطيّ كأنها قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

وكثيراً ما أصبحت القطاة مبكرة سباقة مع سربها إلى الماء، ولها إليه طلائع.. يقول لبيد بن ربيعة:

فوردن قبل فراط القطا ان من وردي تغليس النهل

ولعل خير من وصف القطا من الشعراء الإسلاميين حميد بن ثور والشماخ وعمرو بن احمر الذي يصف في قصيدة له قطاة وفرخها، فيرسم لهما لوحة تكاد تتكامل فيها عناصر الحركة والألوان، فقد صور فيها قطاة ترعى وهي ظمآى، ولا ماء، وبعد خمس ترد الماء مسرعة فيمن يرده، فترتوي وتملأ حويصلتها فتعود إلى فرخها الذي ما كاد يسمع صوتها حتى اعتدل فرفع عنقه متمايلا مضطربا:

ترعى القطاة الخمس قفورها ثم تغر الماء فيمن يعر

حتـــى اذا مـــا مـــا حببـــت ريـــة   وانكـــدرت تهـــوي بهـــا مـــا تمـــر

صهصـلق الصـوت إذا مـا غـدت   لـم يطمـع الصـقر بهـا المنكـدر

ايقظـــــــه ازملهـــــــا فاســـــــتوى   مصعصـع الـرأس شـخيت ققـر

وبعد ان وصف الفرخ، ريشه وذيله وحركاته، طفق يصف كيف تسقيه امه الماء زقا:

فازغلـــــت فـــــي حلقـــــه زغلـــــة   لـــم تخطـــئ الجيـــد ولـــم تشـــتفر

ولقد بلغ ابن احمر في وصفه هذا مبلغاً عظيما من التأنق والتدقيق، والم بما تستوجبه الصورة الصادقة لحركة الطائر العطش الذي يرحل الى الماء ليروي ظمأ صغاره، كما استطاع ان يرسم ملامح الأمومة التي اشتهر بها القطا.

اما حميد بن ثور فقد برع في لوحة رسم فيها صورة قطاة تسعى إلى الماء مع سربها، غير انها ما ان تفصل عنه فتجتاز بعض الوديان وهي في سبيلها إلى الماء حتى تحن إلى صغارها وما تكاد تصل، فتعب الماء حتى تعود فتسبق السرب لتصل إلى أفراخها العطاش، يقول:

كمـــا حببـــت كـــدراء تســـقي فراخهـــا   بشـــحظة رفهـــا والميـــاه شـــعوب

غـدت لـم تصـعد فـي السـماء وتحتهـا   إذا نظـــرت اهويـــة وصـــبوب

اذا مـــا تبـــالين البلـــى تزغمـــت   لهـــن قلـــولاة النجـــاء طلـــوب

فجاءت وما جاء القطا ثم شمرت لمسكنها والواردات تنوب

وتأوي إلى زغب مساكين دونها فلا ما تخطاه العيون مهوب

وجاءت ومسقاها الذي وردت به إلى النحر مشدود العصام كثيب

ولعل من اجمل ما متع به هذا الطائر من صفات، انه كثيراً ما يغدو إلى الماء تحت ستر الظلام متخفيا عن أعين الصائدين، على الرغم من كدرة لونه:

تجوبُ الدجى كدرية دون فرخها بمطلى اريك سبب وسهوب

وقد تضل قطاة أو اكثر سربها، فتبقى تبحث عنه طيلة النهار، يقول الشماخ:

إذا غادرت منه قطاتين ظلتا اديم النهار تطلبان قطاهما

ولم يطل الزمن بعصر صدر الإسلام، فلم نر الشعر في القطا يصل من حيث الكثرة إلى ما كان عليه من قبل أو ما وصل إليه زمن بني أمية وما بعده.

النعام

النعامة طائر، الجمع نعامات ونعائم، ويطلق على الذكر والانثى، والنعام جنسه كالحمام، والظليم ذكره، وهو معدود في الطير وليس في الحيوان الوحشي كالذئب والثعلب وغيره، ولقد دافع بعض الشعراء عن النعامة فصاغ على لسانها شعراً يؤكد كونها طيراً لا غير، فقال :

فـــان قيـــل احملـــي قالـــت: فـــاني مـــن الطيـــر المربـــة بـــالوكور

ولقد احتل ذكر النعام في شعر ما قبل الإسلام مكاناً واسعاً، واثرت عنها صفات ضربت أمثالا، وسجلتها أشعارهم من مثل قولهم: (اشرد من نعامة، واجبن من نعامة، واعدى من ظليم)، ولم تغب أمثالهم عن شعر صدر الإسلام، فهذا كعب بن مالك يصور المشركين تسوقهم خيل المسلمين بالنعام الشرد فيقول:

فاتـــاك فـــلّ المشـــركين كـــانهم والخيـــل تثقفـــنهم نعـــام شـــرد

ويذكر كعب استشهاد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه فيصف الخير الذي ادبر عن قاتليه بالنعام الجوافل فيقول:

وكيـف رأيـت الخيـر ادبـر عـنهم وولـى كادبـار النعـام الجوافـل

اما الشماخ فيصف سرعة جري النعامة إلى بيضها كي تحضنه، مثيرة غباراً، ويقول:

ولـودين للبـيض الهجـان وحالـك من اللون غربيب بهيم كلاهما

إذا اجتهـدا التـرويح مـدا عجاجـة أعاصـير ممـا يسـتثير خطاهمـا

فقد عرفت النعامة برعاية بيضها، واحاطته، حتى ضرب بيضها المصون مثلا للفتاة المنعمة الخادرة، من ذلك ما جاء في كلمة لسحيم، يصف فيها عميرة بالنعمة فيقول:

عميـــرة ودع ان تجهـــزت غازيـــا كفـى الشيبُ والإسلام للمرء ناهيا

ثم يصفها قائلا:

كـأن الثريـا علقـت فـوق نحرهـا   وجمـر غضـى هبـت لـه الـريح ذاكيـا

تـرك غـداة البـين كفـا ومعصـما   ووجههـا كـدينار الاعـزة صـافيا

فمـا بيضـة بـات الظلـيم يحفهـا   ويرفـع عنهـا جؤجـؤا متجافيـا

ويجعلهـا بـين الجنـاح ودفـه   ويفرشـها وحفـا مـن الـزق واقيـا

فيرفـع عنهـا وهـي بيضـاء طلـة   وقد واجهت قرنا من الشمس ضاحيا

ثم يعود ليؤكد ان كل هذه الإحاطة لا تصل إلى ما كانت فيه عميرة من نعمة وترف، وما متعت بع من رفاهة عيش ورخوصة جسد، وهو بهذا يعكس ما يعتمل في نفسه من الإحساس بالهوة بين ما هو عليه من شظف، وما يعيشه المنعمون.

ونقرأ عند عمرو بن احمر الباهلي صورة من الرعاية لبيض يحوطه ظليم، فيمنعه من ريح الشمال وحر الشمس في مطمان من الأرض، ويقرن ذلك كله بصاحبته الهادئة المطمئنة.

ولعلمنا نتفق ان الشاعر لم يكن في معزل عن تراثه الأدبي والاجتماعي، وبخاصة عما كان يدور في المجالس من أحاديث واساطير، اخذ كثير منها مكانه في أشعارهم، من ذلك ما جاء في شأن النعام، فقد زعموا ان نعامة ذهبت تطلب قرنين، فاجتثت أذناها، فغادرت صلماء، اخذ ذلك أبو العيال الهذلي حين خاطب ابن عم له معنفا إياه، ضاربا له مثلاً في خيبته فيما يسعى إليه، من النعمة تلك:

أو كالنعامـــة إذ غـــدت مـــن بينهـــا – ليصـــاغ قرناهـــا – بغيـــر اذيـــن

فاجتثـــت الأذنـــان منهـــا فانتهـــت صـــلماء ليســـت مـــن ذوات قـــرون

فهو يطلب عنده الخير بمنازعته إياه فعاد مجدوعاً جزاء ما فرط في جنب قريبه.

وإذا استعرضنا المزيد من صور النعام، فاننا سنرى انه لم يبلغ ذكرها في شعر صدر الإسلام ما بلغه في شعر ما قبل الإسلام، لاختلاف الدور الذي كلف به المسلم عما كان عليه من قبل، إلا ما جاء من خلال بعض رحلات الشعراء البدو او على السنة بعض المخضرمين ممن أوتى ملكة التعبير.

الغراب

الغراب طائر هو المتهم الأول من الطيور بما ليس فيه من السوء على الحقيقة، فقد تشاءموا منه وبه حتى اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب، ورأوا في صباحه نذير شؤم قال عنترة، يشبه منقار الغراب وصوته بمقص الصوف:

حـــرق الجنـــاح كـــأن لحيـــي رأســـه جلمـــان بالاخبـــار هـــش مولـــعُ

ولم تعدم الأرض العربية من العقلاء من كان يذكر عليهم الاعتقاد بتأثير الغراب أو غيره على مجريات الحياة.

اما في شعر الإسلام، فقد كانت النظرة تختلف عما درج عليه الشعراء من قبل؛ لأن الإسلام ابطل الاعتقاد بالتطير عامة وبالغراب خاصة.

يقول ضابئ بن الحارث، وهو متوجه إلى الله تعالى تائب إليه، رافضاً ما كان يعتقده هو والجاهلون من الناس، منزهاً نفسه من ذلك:

ومـا أنـا ممـن يزجـر الطيـر همـه اصـاح غـرابٌ أم تعـرض ثعلـب

لأن الإيمان بذلك يناقض صدق إيمانه بالله وحسن توكله عليه، وقد تجلى إيمان الشاعر المسلم بالله، واعتقاده بالقدر، وسخريته من الاعتقاد بأثر الغراب في رد قضاء الله، في قول لربيعة بن مقروم الضبي:

اصـبح ربـي فـي الأمـر يرشـدني إذا نويـت المسـير والطلبـا

لا سـانح مـن سـوانح الطيـر يثنينـي ولا ناعـب إذا نعبـا

فقد قضى الله ان لا يعلم الغيب إلا هو، ولعل ما ورد من شعر إسلامي ذكر فيه الغراب في مواطن تشاؤم، فعلى سبيل التقليد لا الاعتقاد.

وربما وصف الغراب بصفات دالة على البؤس والفاقة، كتتبع آثار السفر وشدة الترقب والقبح، ليتخذ منها الشاعر وصفا لحالة كان يعيشها هو نفسه من مثل قول كعب بن زهير:

وحمـش بصـير المقتلـين كأنـه إذا ما مشى مستكره الريح اقزل

يكـاد يـرى مـا لا يـرى عـين واحـدٍ يثيـر لـه مـا غيـب التـرب معـول

إذا حضـراني قلـت لـو تعلمانـه ألـم تعلمـا انـي مـن الـزاد مرمـل

انهما غراب وذئب، لم يكن ذكرهما تشاؤما بقدر ما كان تصويرا لواقع حالة ومعاناته من الفاقه وقلة ذات اليد. وفي شعر الحطيئة صور جميلة رسمها فصور في واحدة منها غرابا بصحبة ذئب، جمعتها ظروف متشابهة،

علها صحبة البحث في مجاهل الفلوات عما يدفعان به غائلة الجوع، غير ان الحطيئة كان من خلال صورته اقرب إلى البخل منه إلى الفقر.

وكلا الشاعرين رسم صورة يصف حالة المحتاج إلى المال مستوحين ذلك من الذئب ورفيقه الغراب.

الطير الجارح

استأثر الطير الجارح باهتمام العربي قبل الإسلام في مواطن كثيرة اهما الصيد والقنص وظل حاضراً في قصائد الفخر بالبطولات العربي، ذلك ان اغلب سباع الطير تحلق عصائب فوق الرجال الزاحفين للقتال، يقول النابغة الذبياني:

(الطويل)

إذا ما غزوا في الجيش حلق فوقهم   عصائب طير تهتدي بعصائب

وكان للنسر المكان الأول في تلك العصائب، لما عرف عنه من عدم انفته من اعتماد الميتة طعما له، حتى انه لينظر موت المدنف لينقض عليه نهشاً، مما يأنف عنه الصقر او البازي، اللذان يعتمدان الصيد في الأغلب.

وقد ضرب الطير الجارح مثلا للخيل المنقضة على العدو، ذلك انه موصوف بالعتق وبالرفعة وبالاطراق والهيبة، وظل الجارح في صدر الإسلام مضرب المثل لما ضرب له فيما قبل الإسلام، فكانت خيول المسلمين كالكواسر المنقضة التي تهوي على المصيدة الفزعة، من ذلك قول النابغة الجعدي مفتخراً بفرس سابق مشبها إياه بالصقر:

(الطويل)

فظل يجاريهم كان هوية   هوي قطامي من الطير امعرا

وقوله: (المتقارب)

ومـــــن دون ذاك هـــــوي لـــــه هـــوي القطـــامي للأرنـــب

والقطامي هو الصقر، والصورة واضحة بين انقضاض الفارس وهو يبقر عدوه والصقر وهو يفرس مصيدته.

وفي العقاب وردت صور تشبه فيها الفرسان به، فهو يحوم حول العدو حتى تضيق عليه الأرض فيهوي عليه بعد سرعة، يظهر فيها اللواء خطفا للرائي، حتى تنتهي المعركة عن نصر خلف جيفا للنسور. يقول عمرو بن معد يكرب في فتح نهاوند، واصفاً الجيش المسلم وقائده المنتصر، وجيش العد الفزع المنهزم:

(الكامل)

قـاد الجيـاد علـى وجاهـا شـزبا قـب البطـون نواجـل الابـدان

لمـا رأى الجمـع المصـبح خيلـه مبثوثـة ككواسـر العقبـان

فزعوا إلى الحصن المذكي عندهم وسط البيوت يردن في الارسان

ومن ذلك قول العباس بن مرداس:

(الطويل)

بمكـة اذ جئنـا كـأن لواءنـا عقاب ارادت بعد تحليقها خطفا

ولا يخفى ما في اللوحتين من دقة تتم عن عمق في خيال الشاعرين، مستمد من البيئة العربية بتعبير يظهر صدقه، واقع حال الجيش الإسلامي المنتصر.

وفي معرض التذكير يرسم لبيد صورة للنعمان بن المنذر الذي لم يكن ليشارك في القتال إلا بعد اطراقته المعروفة لدى الملوك أمثاله.. فيقول:
(الرمل)

فانتضـــلنا وابـــن ســـلمى قاعـــد   كعتيـــق الطيـــر يغضـــي ويجـــل

والعتيق هو الحر من الطير أو ملك الجوارح (الصقر).

اما إذا جذ ريشه فليس له نهض على الرغم من عتقه، فهذا عبدالله بن ابي (المنافق) يخالفه قومه، فيتبعون الدين الجديد وينفضون عنه، فيتبعهم مرغماً، غير انه يعزو نكوصه إلى انفضاض القوم عنه، فأنشأ يرسم لذلك صورة من طائر قص جناحه، فلا نهوض له ما بعدوا عنه:
(الطويل)

متى مل يكن مولاك خصمك لا تزل   تزل ويصرعك الذين تصارعُ

وهل ينهض البازي بغير جناحه   وانَ جذ يوما ريشه فهو واقعُ

ويبقى النسر في صدر الإسلام مضرب المثل لطول العمر، فهذا لبيد يذكر النسر (لبد) الذي تروى عنه أسطورة ان لقمان الحكيم اختار نشوراً سبعة، وسأل ان يعيش ما عاشت، وكان آخرها لبد، ولكن لبدا هذا مات، بعد ان طال عليه الأبد ولم يخلد، فالموت حتم مقضي، وهذا ما يؤكده لبيد في شعره، ذلك ان ريب الزمان جرى عليه كغيره من قبل، وفي ذلك يقول:
(الكامل)

ولقـد جـرى لبـد فـادرك جريـه   ريـب الزمـان وكـان غيـر مثقـل

ليقف لبد أمام الموت عاجزاً وهو يرى النسور قد ماتت، ولم تفلح صيحات لقمان: انهض لبد، نهضاً شدد:

لمـــا رأى لبـــد النســـور تطـــايرت رفـــع القـــوادم كـــالفقير الأعـــزل

مـــن تحتـــه لقمـــان يرجـــو نهضـــه ولقـــد رأى لقمـــان ان لا يـــأتلي

وما قصر لقمان في محاولاته، ولكن قدر الله غلب.

ويظل النسر حاضراً أبان الحروب الإسلامية لتأكيد النصر من خلال تصوير ما تخلفه المعارك من قتلى، يقول القعقاع:

(الطويل)

غـداة هـووا فـي واد خـرد فاصـبحوا تعـودهم شـهب النسـور القشـاعم

ولم يبلغ ذكر الجوارح في صدر الإسلام ما بلغه في عصر ما قبل الإسلام وخاصة عند الحديث على جوارح الصيد، لانشغال المسلمين بمهمة الجهاد وبث الدعوة وقصر أمد هذا العصر.

التطير:

التطير هو التشاؤم، يقال تطير من الشيء وبه: تشاءم، وذلك هو الفال الرديء، والتطير مأخوذ من الطير، فقد كانت العرب اكثر الناس طيرة ذلك انهم كانوا إذا أرادوا سفراً نفروا طائراً، فإذا طار يمنة ساروا وتيمنوا، وان طار شمالا رجعوا وتشاءموا، وكان الغراب والبوم من اشد الطير شؤما عندهم، ولقد غلبت كلمة التطير على كل ما يتشاءم منه أو به، وكان اغلب شيء يتشاءمون منه بعد تشاؤمهم بالطير، ريح الشمال، على انها تجلب النحس، وكذلك النجوم، كأن تدوم الثريا طالعة عشاء، ولقد تطيروا من

العطاس أيضا، فقد كانوا يعدلون عن أية نية لهم كالسفر أو الصيد إذا سمعوا عطاس أحدهم، يقول امرؤ القيس:

(الطويل)

وقـد اغتـدي قبـل العطـاس بهيكـل   شديد مشك الجنب فعم المنطق

أراد انه ينتبه للصيد قبل ان ينتبه الناس من نومهم، لئلا يسمع عطاساً يثير فيه التشاؤم، بل لقد كانوا إذا ستمعوا عطاساً دعو على العطاس بما يكره، ولقد ابطل الإسلام الاعتقاد بالتطير، وبكل عقائد الجاهلية التي تدل على قصور في النظر وضيق في التفكير، فالطير سانحاً كان أم بارحاً، لا يمنع عزمه عزمها مسلم، مؤمن بالله، فلا يركن لوساوس الشيطان ولا ينثني عن الإقدام إلى الخير، فإذا عزم توكل على الله، لا يمنعه زاجر ولا ناعب ولا عاطس.

ان الإسلام لم يكتف برفض التطير وحسب، بل لقد قلب موازينهم وغير مفاهيمهم الجاهلية، من ذلك نجد ان الدعاء على العطاس اصبح دعاء بالرحمة؛ لأنه – في عقيدته – فأل حسن.

ولقد ورد ذكر التطير في القرآن الكريم، قال تعالى: (قالوا اطَّيَّرنـا بِكَ وَبِمن مَّعك قالَ طائِرُكُم عِندَ اللِه) (٤٧) سورة النمل، وقال تعالى: (قالوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ) (١٩) يس.

ولقد جاء إبطال هذا الاعتقاد على لسان النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ((لا عدوى ولا طيرة))، وقوله: ((الطِيرة شرك – ثلاثاً – وما منا الا، ولكن يذهبه بالتوكل)).

اما شعر صدر الإسلام فقد سجل الفكر الرافض لكل مظاهرة التخلف والجهل، ذلك انه ((لا شيء اضر بالرأي وافسد للتدبير من اعتقاد الطيرة))؛

لأن الأمور في عقيدته تجري كما شاء مجريها على القدر، لا على ما تحب القلوب او تخبر به الطير، يقول الشاعر:

(البسيط)

لا يعلم المرء ليلا ما تصبحه إلا كواذب مما يخبر الفال

والغال والزجر والكهان كلهم مضللون ودون الغيب اقفال

ويقول الحطيئة، وهو مؤمن ببطلان التطير، منزهاً أبا موسى الاشعري عن اعتقاده:

لايزجر الطير ان مرت به سنحا ولا يفيض على قسم بازلام

ويتجلى إيمان ربية بن مقروم بالله وتوكله عليه، بسخريته من التطير ومن الاعتقاد بالسانح أو البارح أو الناعب من الطير فيقول: (المنسرح)

اصبح ربي في الأمر يرشدني إذا نويت المسير والطلبا

لا سانح من سوانح الطير يثنيني ولا ناعب إذا نعبا

وكان من قبل مؤمناً بما كفر به بعد إسلامه.

اما لبيد فانه يؤمن بان علم الغيب لله، فلا تدري زاجرات الطير ولا الضروب لحصى ما الله صانع أو منى يلقى المرء المنية، او متى ينزل الغيث.... وذلك ما اقره في شعر له في أخيه زيد:

لعمك ما تدري الضورب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

سـلوهن ان كـذبتموني متـى الفتـى   يـذوق المنيـا أو متـى الغيـث واقـع؟

فهو يستلهم قوله تعالى: (ان الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي ارض تموت ان الله عليم خبير)؛ لأن مفاتح الغيب لا يعلمها إلا الله، فقد روي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مفاتح الغيب خس لا يعلمها إلا الله... منها: علم متى يأتي المطر إلا الله ولا تدري نفس بأي ارض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)).

والشاعر يذكرنا في حجاجه هذا سيدنا إبراهيم عليه السلام حين حطم الأصنام، فثاروا فحاجهم إلى ما يعبدون، ان سلوهم... فبهتوا...، ومن صور هذا الرفض قصة هذا التائب الذي يتوجه إلى الله تعالى مستشعراً الصبر، اخذاً به فرسه (قيارا) ليفند مزاعمهم من اثر الطير على مجريات الحياة:

(الطيل)

ومـن يـك امسـى بالمدينـة رحلـه   فـاني وقيـار بهـا لغريـب

ومـا عاجلات الطير تدني من الفتى   رشـادا ولا عـن ريـثهن يخيـب

ورب امـور لا تضـيرك ضـيرة   وللقلـب مـن مخشـاتهن وجيـب

فـلا خيـر فـيمن لا يـوطن نفسـه   علـى نائبـات الـدهر حـين تنـوب

إيمانا منه بان ليس لذلك كله دور في تغيير القدر المقدور، فلا نجح ولا خيبة متعلقان بحركاتها ابدا، وفي ذلك يقول ضاي بن الحارث:

(الطويل)

ومـا انـا ممـن يزجـر الطيـر همـه   اصـاح غـراب ام تعـرض ثعلـب

ولا الصائحات البارحات عشية   امر سليم القرن ام مر اعضب

ومنه قول مزرد بن صرار:

(الطويل)

وانـــي امـــرؤ لا تقشـــعر ذؤابتـــي   مـن الـذئب يعـوي والغـراب المحجـل

ولو استعرضنا المزيد من النصوص الشعرية تبين لنا الشاعر في ظل الإسلام لم يعتقد التطير بل رفضه؛ لأنه يناقض صدق الإيمان واليقين بالله كما يناقض صدق التوكل على الله وتفويض الأمور إليه.

ABSTRACT

Cross-Reference in the Quranic Narrative Discourse

(*) **Dr. Abdullah F. Al-Thāhir**

Qur'aanic texts move to interact between each other according to some different horizons. Different levels of meaning generate accordingly. These levels differ in their deepness. One of these horizons includes 'reference' (whether cataphoric or anaphoric). This can be described as a reflection of the power of the linguistic cohesion on the condition that such a reference transfers the speaker to texts away from the current context. Some meanings generate from such shift. These meanings could be superficial or deep. Accordingly, some deep levels of meaning can be generated.

(*) Dept. of Arabic- College of Arts / University of Mosul.